عبقرية الالم والابداع

بتهوفن

—٢—

غرام بيتهوفن

بقلم الاستاذ صمويل شريف

احب بيتهوفن فتاة لعوب تدعى « جوليتا جيشياردي » فكان حبه هذا أول غرام يقع به فاهداها « سونا تا ضوء القمر » ولم تكن هذه الفتاة اللعوب تحبه انما كانت تعبث به فزادت في آلامه واغرقته في احزانه حين فرت مع احد الكونتيه الاثرياء وتزوجته ..

وحن الى وطنه الأصلي .. حن الى نهر الراين والى شقيقيه .. حن الى تلميذته ورفيقة صباه « اليانور برونينغ » زوجة صديقه الطبيب فيجلر التي كانت تقول له دائماً «لودفج لم انت في هذا الحياء الشديد .. لم انت في حياء العذارى .. الا ترى النساء يتهافتن عليك ...حاول ان تحب . »

انه الآن يذكر كلماتها . . وها هو أخيراً قد احب كما نصحته الا انه فشل في حبه .. وكان كلما ذكر انانية جوليتا وعبثها وغدرها به ترتسم على محياه امارات هي علائم شيطان فر من أرضه

على ان حبه الوحيد الذي عاش به حتى الموت ، كان لفتاة نبيلة من طبقة الاشراف تبادله حبه هذا وتدعى « تيريزدي برونسنيك » وقد رآها المرة الاولى واحبها في سنة ١٨٠٥ في احدى الحفلات التي كان يعزف بها بمنزل أخيها الكونت « دي برونسنيك » صديقه الحميم . وكانت تبادله حبه العنيف بحب اقوى منه .. وحين تقدم لخطوبتها في سنة ١٨٠٦ قبلت بزواجه بينما رفض سائر افراد اسرتها ذلك اللهم الا صديقه شقيقها الكونت الذي كان يحب بيتهوفن ويعتز بصداقته . واستمرت خطبته لها سنوات اربع انهى بها الملحنة الرابعة والملحنة الريفية « باستورال » التي اوحتها اليه كما انه ازداد بها حباً وهياما وازدادت به شغفا واخلاصا فاهدته صورتها وقد كتبت عليها « الى رجلي العظيم لودفيج تريز » وكان يكتب لها حين تحتجب عنه مدة من الزمن : « ياحياتي ان نفسي الحزينة تواقة الى رؤيتك .. أن الآمي رحلت عني حين عرفتك . ان نفسي الحزينة المتألمة لا حياة لها بدونك . فانا لك للابد يامعبودتي » ووقفت التقاليد والروابط الاجتماعية العائلية وفروق الثروة والمكانة الاجتماعية حائلا دون زواج الحبيبين فانفصلا عن بعضهما ولم يفصلهما عن الحب شيء الا الموت الذي انقض على بتهوفن اولا .

وبقي بتهوفن معذبا بحبه لتريز فلم يلتفت الى غيرها من النساء ولم يحاول ان يجرب الحب مرة اخرى لأن عروقه لم تنبض الا بحب المرأة التي اصطفاها قلبه واصطفته هي بدورها لقد كان يقول بعد ان اجبرا على الفراق « لقد كانت الملاك الوحيد الذي عرفته بعد امي » .

وخلدها بتأليفه الملحنة الخامسة التي انهاها في فترة طويلة الامد . ولما عزفها للمرة الأولى لم يفهمها احد من جمهور المستمعين على حين نهض ناقد مشهور من مقعده وصاح مشيراً باصبعه نحو بتهوفن : « سوقوا بتهوفن الى مستشفى المجاذيب فهناك مكانه » ولم يسمع بتهوفن كلمة واحدة مما قاله الناقد لأن الصمم ذهب باكثر سمعه واصبح يضع في اذنه الوحيدة التي بقيت شبه ساطة بوقا يستجدي الاصوات الى اذنه . ولما سئل فيما بعد عما يقصده بقطعته هذه اجاب بتأثر وهو يرنو بعينيه الى الافق وقد تذكر « تريز » هكذا يقرع القدر الابواب

وبدأت فترة من حياته شبيهة بحياة شاك من الشكاك .. فترة خصيبة القلق عميقة الابداع فانهى في هذه المدة ملحنتيه السابعة والثامنة وكثيراً من قطع السوناتا العذبة والكونشرتوا الرائعة . واعاد عزف الملحنة الخامسة فكان وقعها في هذه المرة احسن واستطاع ان يسمو بالافكار الشعبية الى درجة من الرقي الفكري العالية فقد كان كل مقطع من مقاطعها خلجة من خلجات نفسه الحائرة المعذبة يتجاوب صداها مع نفوس المعذبين على الارض .

اجمع الناس ولا حديث لهم الا عن هذا النابغة الفذ فطبقت شهرته الافاق وطار صيته الى كل مكان واصبحت

الملايين من البشر تستمع الى موسيقاه التي تعزفها الفرقة في جميع انحاء المعمورة ولكن السعادة والسرور المتان ينعم بها البشر في سماع موسيقى ذلك الاصم كانت تفر منه لتجعله تعيسا محطما . لقد استطاع اسعاد الملايين من البشر ولكنهم ضنوا عليه بالسعادة وحرموه حتى تلك التي استلهم زوائعه كأن آلامه التي ابتلاه بها القدر لم تكفه فحرمه من اقدس من وحيها شيء عنده الا وهو سمعه

٤ — بين جوته وشوبرت.

كان بتهوفن يقيم في حمامات « بوهيميا » حين سيمى اليه « جوته » يود التعرف عليه وكان لقاء آخر أتوطدت على اثره صداقتها التي ما لبثت ان تفككت عراها فقد تحدث بتهوفن في مذكراته « لقد كنت احترم « جوته » وأجله ولكن حدث امر جعلني آنف من صداقته فيما بعد فقد كنت واياه في نزهة خلوية في حدائق القصر الامبراطوري وكنا في طريق العودة حين اجتمعنا فجأة في الطريق بالاسرة الامبراطورية . ولم يكد صديقي « جوته » يراها حتى سحب يده من ذراعي بحركة عصبية ، ثم لجأ الى جانب الطريق ووقف ينتظر الموكب ولم يرض بالتقدم معي خطوة واحدة برغم الحاحي الشديد على ذلك فخالفته ورائي وتابعت سيري بعد ان عقدت ذراعي خلف ظهري وهي عادة نشأت عليها منذ حداثتي وتقدمت من الامراء الذين افسحوا لي الطريق فخلع الارشيدوق « رودولف » قبعته احتراما لي .. كما كانت الامبراطورة هي البادئة بتحيتي . ان الاسرة الامبراطورية تعرفني .. والعظماء يقدرونني ويعرفونني . ثم وقفت انظر الى « جوته » الذي انحنى في جانب الطريق احتراما واجلالا لموكب الاسرة المالكة .. انه لا يحترم نفسه »

وبقدر ما كان العظماء والنبلاء يتسابقون ويسعون لمقابلته والتعرف اليه كان هو منصرفا عنهم . ولكنه كان يخفي رغبة ملحة في اعماق صدره . اذ كان توانا الى مقابلة الموسيقار « فرانز شوبرت » الذي كان خجولا والذي كان لا يقل شوقا عن بتهوفن نفسه في التعرف اليه ، ولقد ذهب « شوبرت » مرة من تلقاء نفسه الى بتهوفن معتزما البدء في لقائه ولكنه حين وصل الى باب داره وقف امامه برهة دون ان يجسر على طرقه ثم عاد من حيث أتى فتحد مالك عليه الخجل حسه ولج بتهوفن لصديقه « شندلر » برغبته في التعرف على شوبرت فسعى هذا الى تدبير اجتماع بينهما وتمت المقابلة وكان بتهوفن مريضاً على وشك الموت وقد جرت المحادثة بينهما كتابة

٥ — الفشـــل

الف بتهوفن اخفاقا للاوبرا فشل بها وكانت مسرحيته الوحيده الفاشلة « فيدلو » فحين عرفها في المسرح للمرة الاولى اكتشفت الناس صممه الوبيل منذ كان يقود الاوركسترا دون وعي ودون ان يدرك الى اين انتهى العازفون في عزفهم واختلط عليه الامر فلم يعد يعي شيئاً وظهر الارتباك في حركات يديه والتفاتاته التي ازدادت يمينا ويساراً والتي وجهت اليه الانظار ولغرابتها .. وراع الناس الفشل الذي حاق به وصاح احد المستمعين ينبه الجالسين حوله : انظروا اليه كأني به اصم لا يسمع . لقد اسرف في الاخطاء وما زال يخطىء .. انظروا الى صياح صديقه « شندلر » . انه لا يسمعه .. انه يصرخ في اذنه انه كالطائر يفتش عن صديقه الذي يناديه ..

والتفت بتهوفن بحركة آلية الى صديقه الذي نبهه الى وجوده بلمسه فاشار اليه بتهوفن ان يكتب ما يريد ان يسأله . فكتب شندلر على ورقة صغيرة : غادر المنصة في الحال ستأشرح لك كل شيء في البيت وما كاد بتهوفن يقرأ ما كتبه صديقه حتى تكهن بالحقيقة فاعتدار نحو الناس الهازئين به والمشفقين عليه ونزل عن المنصة وغادر المسرح الى داره يصاحبه شندلر الذي كان يرفه عنه .. وفي نفس ذلك المساء انتشر خبر صممه في طول المدينة وعرضها وتعداه فيما بعد الى سائر انحاء المعمورة.

٦ — انتصار القدر

من وراء آلامه واحزانه واتراحه ، من وراء اشفاق الشعب عليه قرر بتهوفن ان يؤلف من جديد . ولكن كيف يمكنه ان يؤلف الآن وقد اكتمل صممه واصبح اصما كغيره . وكيف السبيل الى ما يفكر به الآن . كيف السبيل لسماع ما تخطه يده من الحان . الا يكون الفشل مرائده وحليفه ثانية . وبدأ الصراع العنيف لهذه النفس المعذبة . فتجلت قوة

ارادتها .. صراع رهيب مع القدر هل تتغلب ارادة الانسان على قوة القدر ؟ صراع هذا الرجل الشقي مع نفسه المعذبة قصة انسان تعس خاض معركة حياته اليائسة فانتصر على يأسه وتعاسته . ولكنه !! فشل في انتصاره على القدر

ابتداء بتهوفن بتأليف ملحنته التاسعة عام ١٨١٧ وحين بدأ بكتابتها كان الصراع العنيف دائراً بين الطبقة الاقطاعية والحكم المطلق من جهة وبين العمال والصناع والفلاحين الذين كانوا يقودون الحركة البراجوازية التقدمية في مضمار الحضارة من جهة ثانية للحد من نظام الحكم الاستبدادي المطلق والاقطاعية المقيته .

وكان الفنانون من شعراء وكتاب وغيرهم لا يقلون حماساً عن ثورة الشعب النفسية في القضاء على تلك الطغمة الإقطاعية وذلك النظام البائد .. ولكنهم كانوا في نفس الوقت يخافون من السلطات التي تزج بهم لاقل كتابة او اية اشارة تثير الرأي العام الى الوضع الحاضر الذين هم فيه .. واخذ الأدباء من شعراء وكتاب ينشرون ما يكتبون ويدعون الشعب الى النضال في سبيل الحرية بعدان يغفلوا اسماءهم خشية من السلطات التي زجت بأكثر الأدباء المتحمسين الجريئين في غياهب السجون والمعتقلات.

ونشر الشاعر الالماني الكبير « شلر » نشيده المعروف « الحرية » فاخذه بتهوفن وجعله موضوعا لملحنته التاسعة التي جعل عنوانها بدوره « الحرية » كان بتهوفن ناقماً على نظام الطبقات الاقطاعي يحس بآلام الشعب وشقائه ويلمس بنفسه احزانه وفقره المدقع حين بدأ بتأليف ملحنته عام ١٨١٧ وانتهى من وضعها سنة ١٨٢٤

« تحليل مختصر » لملحنة التاسعة .

في ٧ ايار عام اربعة وعشرون بعد الثمانمائة والألف عزف بتهوفن ملحنته الخالدة في مسرح «الكارنيته» للمرة الاولى وكان المسرح غاصاً بالجماهير وقد ضاقت انفسهم وصدورهم من الاقبال الشديد ، وقد كانت تداعب ادمغة الجماهير رغبة واحدة أتوا ليعرفوا نتيجتها فقد كان بتهوفن اصما وكانوا يودون ان يعرفوا كيف وضع ذلك « الاطرش » لحنه هذا وان كان اكثرهم موقناً بأن الفشل سيكون رائده كما فشل في المرة الماضية في مسرحيته « فيدليو »

ورفعت الستارة وران الصمت النظارة واحتبست الانفاس واصاخت الاسماع وتوجهت الانظار نحو المسرح بتلهف واستلم زمام رئاسة الاوركسترا الموسيقي المشهور « اومبارف » وجلس على مقربة منه بتهوفن وشندلر وانصتت الجماهير في اهتمام بالغ وبدأت الحركة الاولى « ١ » من حركات الملحنة الاربعة تسري في المستمعين كسريان النار في الهشيم وأحس كل مستمع بما يريده منه بتهوفن . كان يدعوا الشعب المتأهب الهادئ المستكين دعوة جبارة صامتة الى الثورة في سبيل حريته والى بذل النفوس لنوالها . الحرية المسلوبة من هذا الشعب المسكين البائس .. الحرية التي اغتصبها منه أسياده ومستعبدوه

وانتقلت الأوركسترا الى الحركة الثانية فطالع المستمعون بها الآلام والمساوئ التي يقاسيها الشعب واستطاع ان يسمو بأفكارهم الى ذلك التفاؤل الذي صوره في ايمان الشعب بحريته فداعب افئدتهم واستقر في اذهانهم رويداً رويداً وشيئا فشيئاً بهدوء وهدوء جميل .

وراع المستمعون في الحركة الثالثة الدعوة الصريحة في التريث والانتظار والصبر والتضرع الى الله لأنقاذهم من الظلم الذي منهم حكامهم به فكان يكتب يشعورهم ذلك النشيد الديني الحزين الذي يرن في اسماعهم بقلق . . . وران عليهم الخشوع حين تخلل سمعهم ذلك الدوي الهائل دوي الأمل والرجاء .. ذلك الطنين الذي عذب بتهوفن كثيراً قبل انه يفقد سمعه . لقد تلقوا دعوته هادئين متشوقين مبتهلين الى الأمل والرجاء الموعودين للتحرير من العسف والجور اللاحقين بهم ... ثم غرقوا منه جديد في ذلك الهدوء ... الهدوء الذي يسبق العاصفة والانفجار الكامن .

وبلغ حماس المستمعين اشده حين دخل الحركة الرابعة بذلك النداء العميق الذي كانت تحرثه الآلات النحاسية ... نداء قاسي شبيه بدعوة صريحة للأنفجار . للثورة المكبوتة التي طال امد انتظارها .. وتوترت اعصاب المستمعين حين

« ١ » [الحركة : اصطلاح موسيقي] [بمعنى القسم الاول اوما شابهه]

تكرر ذلك النداء ... النداء الذي كان يدعوهم لاسترداد حريتهم المسلوبة بأي ثمن ... كان يدعوهم دعوة تحريرية من نير الظلم والاستبداد وكان يتجاوب اصداءهم بين الحين والحين موسيقى لهتاف غامض موسقى لنشيد حماسي يبدو ثم يعود من جديد الى ان دوى بصخب. صوت المنشدين يرددون نشيد شلار [الحرية] بحماس منقطع النظير .

وما كاد العازفون والمنشدون ينتهون من العزف والغناء للذان استمرا ما يقرب الساعتين حتى خيم الصمت قليلا على الجمهور الذي انتابه الذهول لروعة الألحان الساحره الصاخبة ثم انفجر الحماس المستبد به يصفق ويهتف ويلقي بقبعاته في الفضاء .

واسدلت الستارة على المسرح وبتهوفن لم ينتبه الى كل هذه الضوضاء التي احدثها المتفرجون اعجابا فقد كان ظهره اليهم لمتابعته العزف ، ورفعت الستارة ثانية فعلا الهتاف والتصفيق الذي لم ينقطع من جديد ولكن بتهوفن بقى مستمراً في مكانه لم تحركه هتافات الشعب له . واخيراً حين رفعت الستارة للمرة الثالثة بعد اسدالها تحت الحاح وطلب الجماهير المستمعة والمهنئة نهض بتهوفن في هذه المرة يرد على تحية الشعب بعد ان نبهه الى ذلك الموسيقار العالمي [او مبادف] . ولما رأت الجماهير انه بتهوفن لم ينتبه اليها الا في تلك المرة فقط غلبها التأثر والشفقة عليه فقد كان لا يسمع حتى اعجاب الشعب به . وكانت الدهشة والعجب باديتين على وجهه .

ولما رأت قوات الشرطة ان الشعب هتف ثلاثاً لبتهوفن وهي عادة درج عليها الشعب في تحية امبراطوره تدخلت لترغم الشعب على الهتاف مرة رابعة لرب الموسيقى ولكن تلك الجماهير الغفيرة لم تكن في حاجة لهذا التدخل لأنها هتفت من تلقائها مرة رابعة واعقبتها بالخامسة .

وبكى بتهوفن حين رأى ولم يسمع هتافات الشعب ... لقد حقق اخيراً بارادته الجبارة رسالته الوحيدة الخالدة للانسانية المعذبة .. رسالته التي كافح من اجلها العذاب والشقاء .

وسأل شندلر صديقه كتابة لم تبك يالودفيج . اجابه بتهوفن بتأثر: إني سعيد .. مسرور لكوني وصلت الى قراءة ما ابغي ويبغي هذا الشعب . . لقد خلت له نفسيته واستطعت ان اسمو به الى ما احبو اليه . . ثم تنهد وقال :

كم حاولت الانتصار على الاقدار عبثا.. لقد الفت ملحنتي هذه لاثبت اني انتصرت عليه واني اقوى منه ولكنه سحقني في النهاية .. لقد صرع ارادتي الجبارة .. نعم لقد اسرت الشعب بموسيقاي التي الفتها وانا اصم واعتقدت اني سحقته حين رأيت تهليل الجماهير واكبارهم عملي.. ولكن تبينت ضعفي اخيراً امامه . تبينت ضعفي في كوني لا استطيع سماع ما كتبت . اني ياصديقي تواق الى سماع ما الفت . تواق الى سماع ما روع الشعب . أأحرم أنا واضع هذه الموسيقى من الاستماع الى الحاني ؟ . الحاني التي خططتها بيدي هذه .. « واجهش في البكاء وهو يقول » : سأكتفي بأن ابكي وابكي تعاستي الدائمة . تعاستي التي تأبى ان تفارقني .

— وفاته

اصيب بتهوفن في اواخر حياته سنة ١٨٢٦ بذات الجنب اثر عودته من سفر طويل شاق في الشتاء فاهمل نفسه ولاهمله اصدقاؤه فاخذ يكافح مرضه بارادته الحديدية دون الاستعانة حتى بالطبيب وحين انتبه اصدقاؤه اليه كان المرض قد استحكم به وتمكن منه فصار شفاؤه أمراً صعباً ولكن مع هذا أجرى له الاطباء اربع عمليات جراحية فشلت جميعها . وكانت النهاية بعد مرضه باربعة اشهر وتوفي في آذار ١٨٢٧ ولقد قال قبل وفاته : « لعل الخير وكل الخير ان يتخلص الانسان من آلامه واحزانه بالموت » ولما فتحوا قبضة يده فيما بعد وهو مسجى في فراشه وجدوا بها دلاية من الزبرجد حفر عليها اسم « تريز » هي كل ما بقي له من آثار حبه « لتريز دي برونسفيت » .

وورى الثرى في ذلك اليوم ومشى في جنازته ثلاثون الفاً من المعجبين به والمقدسين لفنه . وانشجت فيينا من اقصاها الى اقصاها بالسواد حزناً عليه وكان يحمل نعشه اصدقاؤه الكثر من بينهم تلميذه « رودولف وشندلر وشوبرت »

وفي نفس تلك الليلة بعد ان خلت المقبرة من الناس دخلت امرأة مجللة من رأسها الى أخمص قدميها بالسواد المقبرة وقد اخفت وجهها بوشاح اسود ووقفت امام قبره تبكي بكاء

صامتاً حاراً .

وهكذا كانت الكونتس « تريز دي برونسفيك » الوحيدة التي كانت تؤم قبره كل يوم حيث تضع اكاليل الزهور وتسقيه بدموعها واحزانها الى ان توفيت.

— اقوال

قالت فيه « بتينا برنتانو » : عندما رأيته لأول مرة انساني نفسي وكل شيء حولي. انساني العالم . أي انسان هذا العبقري الفذ . . اني اقسم بأن هذا النابغة قد سبق عصره بكثير ولن يفهمه البشر .. ولكن الاجيال القادمة هي التي ربما ستفهمه

وقال « رومان رولان » الكاتب الفرنسي المعاصر المشهور ان الخلق العظيم هو الذي يصنع الرجل العظيم والفنان العظيم وهذا الخلق هو الذي جعل من بتهوفن رجلا فذاً وفناناً عبقرياً

وقال « رتشارد واغنر » الموسيقي المشهور : سيعجز البشر حتى زوال البسيطة ان يصنع ما صنعه بتهوفن .. ان لحنه التاسع الاخير ينبئك بأنه ما من بشر يستطيع ان يصل الى ما وصل اليه . واما الكاتب الالماني الكبير الذي توفي مؤخراً « اميل لودفيج » فقال انه عصر الطغاة شهد الكثير من الرجال العظام والفنانين الكبار ولكن منذ عصر الطاغي « نابوليون بونابرت » وحتى يومنا هذا لم يشهد التاريخ عبقرية اعظم من عبقرية بتهوفن .

وهكذا قدر لهذه العبقرية المتألمة ان تنتصر على آلامها وشقائها واحزانها وان تؤدي رسالتها الفنية رغم صممها الوبيل وبعثت الظفر من الظلام المحيط بها . لقد انتصرت هذه العبقرية الفنية على آلامها بموسيقاها وانتهت آلامها التي رافقتها الى القبر بالموت حيث حلقت روحها الطاهرة الى ذلك العلاء اللانهائي في جنان الله الواسعة بين الارض والسماء حيث ترقد هناك تتلمس السعادة والراحة المرة الاولى في حياتها الابدية

دمشق — صميم شريف

البيان العدد ٧١ ٧٢ — التاريخ ٢٠ — ٩ — ٤٩

اعلان

سيجري تسجيل الدار المرقمة ٤٥ — ٨٩ ذات تس ٧٨٤ الواقعه في محلة العماره في النجف مجدداً باسم العراقية شريفة بنت الشيخ عبد الكريم الجزائري باعتبارها ملك صرف فعلي

مداعبات

● يقول شخص وديع : ان الأدباء في النجف قد تأخروا عن اخوانهم في البلدان العربية ؛ وهذا غير صحيح ؛ فالاديب النجفي مرهف الحس لم يتأخر عن غيره الا بقدر ما تأخرت به مدينته عن باقي المدن الاخرى في الذوق والنظافة .

● يؤمن بعض المهوشين ببقاء عقلية الناس وعدم تقدمها عن قبل ربع قرن ، ولذا فهم في تصرفاتهم يحكمون من سبق في حركاتهم وسيرتهم عند ما يغرون بالسذج ويطوحون بالبسطاء ولم يعلموا بأنهم اصبحوا يحملون « ماركة » سنتم « ١٤ »

● يقول نفر ملعون : ان النجف بحاجة الى الاصلاح ولكن كلما قام مصلح ليعمل وقف في وجهه هذا النفر مدعياً ان المصلح غير مصيب بعمله ، فمن يا ترى هو المصلح ؟.

● سأل شاب نبيه : صديقاً له عن مصداق الدجل ، فقال ان الذي يقف حجرة عثرة في سبيل الاصلاح وهو يعرف معناه ، فهو الدجال ليغالط فئة خاصة انه يحب لهم.

● قال لي أديب ثائر : هل تحس باضطراب في الاخلاق العامة . قلت أجل : لو لم تضطرب اخلاق الخاصة لما سألتني عن ذلك .

● قيل لرجل يظهر التقوى : هل تعتقد ان الله موجود قال وكيف لا اعتقد ذلك . قيل له ألم تقرأ قوله تعالى « ان المنافقين في الدرك الاسفل » ونرى لك ظاهراً وباطنا قال « بعض الناس يشعر واكثرهم لا يعقلون »

من يدعي خلاف ذلك مراجعتنا خلال ثلاثين يوما من تاريخ اول نشرة مستصحباً مستنداته .

٢٠ — ٣ — طابو النجف .